جسر حي

قصة بقلم سليمان فياض

كانوا ستين شابا . امتزجت رائحة عرقهم الخصبة ، برائحة التربة الرملية ، وانتين الشوكي ، وأعواد الشعير الخضراء . كانوا قد انحدروا تتوهم من فوق الهضبة ، ببنادقهم الآلية . استلقوا على جنوبهم ، وراحوا يدحرجون الى السطح ، واحدا بعد الآخر ، وعبروا متسللين في نظام الى رقعة التين الشوكي ، ثم رقدوا زاحفين في حقل الشعير الواسع . وأطلوا من حيث توقفوا عن الزحف ، على مساحات الرمال ، أمام أسلاك المستعمرة الاسرائيلية . كانت المستعمرة الآن ، غارقة من الداخل في أنوار الكهرباء ، التي استلقت رقائها المستطيلة ، في فناء هنا ، وآخر هناك . ولم يكن في السماء ثمة قمر ، ونجوم الليل ما تزال توهض من كل اتجاه . وطال انتظار الرجال بين أعواد الشعير ، وعيونهم موزعة على الاسلاك الحلزونية السائكة ، وبرج المراقبة ، والمزاغل العديدة في جدران المستعمرة . وراحوا ينصتون بدهشة ، الى المستوطنين الوافدين من أنحاء الدنيا ، وهم يغنون ويرقصون ، على موسيقى وحشية ، تعزف بجنون ، وسط ضحكات النسوة ، وصداها يتردد بين الهضاب .

وزحف أحد الرجال ، جانبيا ، الى جاره في حقل الشعير . كان قد سئم من الانتظار ، وبدأ القلق يعصف برأسه .

قال :

ـ اسمي أحمد . اسمعني .

ـ أسمعك . أسمي عطية . تكلم يا رفيقي .

قال أحمد :

ـ لماذا لا نهجم الآن ، وهم مشغولون في اللهو ؟

وأجاب عطيه :

ـ أحرس . حراسهم واقفون في البرج ، وخلف المزاغل . لا بد أن تطفأ الانوار ، ويناموا . في تلك اللحظة ، يبدو الحراس أقل يقظة في البرج ، ووراء المزاغل ، وهناك ، فوق سطوح المستعمرة ، وراء الاسوار . وعندئذ ...

قال أحمد :

ـ أف . أصواتهم عالية جدا .

وأضاف :

ـ دعنا نواصل التحدث .. همسا .

قال عطيه ، وهو يضحك برقة :

ـ جديد أنت ؟

أجاب أحمد :

ـ نعم . تدربت في المعسكر أسبوعين . كان يمكن اختصارهما لاسبوع . صدقني .

قال عطيه :

ـ أنت سوري ؟

أجاب أحمد :

ـ نعم . من اللاذقية . تخرجت من الجامعة . وكنت على وشك العمل ، في وظيفة ، و ... الزواج ، حين قررت التطوع ، والانضمام الى معسكركم .

وتنهد أحمد ، وأضاف :

ـ خطيبتي حلوة . ابنة عمي هي . أحببتها منذ كنا نلعب معا ، وكانت أصغر مني بسنوات . كنت أحملها على كتفي ، لاعيدها الى بيت عمي . شعرها ذهبي . وعيناها في زرقة البحر . خطبتها في السنة الاخيرة بالجامعة . لكن هذا الصراع ، لم يدع لي مع نفسي خيارا . أنت لا تعلم ، لا تكاد تصدق ، انها قبلتني لاول مرة ، عندما أخبرتها انني آت اليكم ، لاحارب معكم .

ضحك عطيه برقة ، وقال مداعبا :

ـ ليس في حكايتك جديد . انها تشبه قصص أكثر من جاءوا الى هنا ، في المعسكر ، وفي المواقع الامامية ، وهنا وسط هذا الشعير . طبعا مع اختلاف في التفاصيل .

وجذب عطيه نفسا عميقا ، وقال :

ـ هل تشم رائحة الشعير ، والارض ؟.. انها تذكرني بقريتي . عشت في المدينة سنوات عدة بعيدا عنها . كم أحن الى قريتي الآن .

وأضاف عطيه :

ـ تكنني لست نادما على شيء . تركت عملي وجئت الى هنا . صدقني . حمدت الله لانني لم أتزوج بعد . وأحسب انني سأستشهد في هذه البلاد .

قال أحمد :

ـ مصري أنت ؟

قال عطيه :

ـ لهجتي لا تخفى على أي عربي ، لكن لهجة السوري ، يمكن أن تكون أردنية ، أو لبنانية ، أو ..

وضحك عطيه ، وصمت . وسكت أحمد برهة . فكر انه لا يستطيع أن يرى الآن وجه عطيه ، في هذه الظلمة ، وعلى هذه المسافة الضئيلة . تخايلت تعينيه صورة شاب أسمر ممتلىء ، ثلثي القامة ، أسود الشعر والعينين . كثيف الحاجبين ، له طابع حسن في ذقنه العريضة . بدا لعينيه شديد جاذبية الوجه الذي يبتسم دائما ، خاصة حين يفتح فمه ضاحكا ، عن سن ساحرة ، يتراجع قليلا عند جانب فمه ، عن صف أسنانه العلوية . وفكر أحمد انه لم تتح له الفرصة ، عصر ذلك اليوم ، ليتعرف به ، عندما أتى الى المواقع الامامية ، قادما من المعسكر . وخالجت أحمد مشاعر مودة مطمئنة الى عطيه . قال بقلق :

ـ هذه أول معركة لي .

قال عطيه مشجعا :

ـ مرحبا بك .

قال أحمد ، وهو يومىء تجاه المستعمرة :

ـ كيف يحاربون ؟

أجاب عطيه مؤكدا :

ـ انهم يحاربون جيدا . طالما كانوا في دبابة ، أو طائرة ، أو خلف جدران كهذه الجدران ، ما دمت أنت خارجها .

قال أحمد :

ـ ووجها لوجه ؟

أجاب عطيه :

ـ سترى بنفسك . أما أنا ، فقد حاربتهم عشر مرات ، وجها لوجه ، بالسلاح الابيض . تدريبهم أكثر من جيد . لكنهم يترددون في لحظة المواجهة ، خوفا من الموت . خاصة ... خاصة اذا رفعت صوتك ، زائرا كالاسد ، وأنت توشك أن تغمد السونكي في الصدر ،

ثم تتبعه برصاصة ، لتسترد السونكي بسرعة ويسر .

قال أحمد باهتمام :

ـ أشكرك لهذه النصيحة . لم يخبروني بذلك .

وسكت لحظة ، وأضاف :

ـ أخبرني ، كم عددهم هناك ؟

أجاب عطيه :

ـ أكثر من ثلاثمائة . رجال ونساء يحملون السلاح .

قال أحمد معلقا :

ـ ونحن ستون فـــدائيا . كل واحد منا يخمسة منهـــم . عددنا يكفي .

قال عطيه :

ـ بالتأكيد . مع الفداء ، والرغبة المؤكدة في التضحية ، يكفي عددنا وزيادة . عادة نعود من مثل هذه الموقعة ، وبيننا أحياء يقاربون الثلث . لكن المهم ، أن المستعمرة تسقط ، وكل من فيها يهلك .

تساءل أحمد :

ـ والمستعمرة نفسها ؟ هل تتركونها بعد ذلك ؟

قال عطيه بدهشة :

ـ لا . لا طبعا . نسلمها لاخواننا الفلسطينيين . ونترك لهـم ماشية ، وحبوبا ، وسلاحا . ونذهب نحن الى مستعمرة أخرى .

وأضاف بانكار :

ـ لو تركناها كما هي ، خربة فارغة ، لجاءوا هم من مكان آخر واحتلوها ، وتذهب دماء شهدائنا عبثا .

وظل أحمد على صمته ، ينصت لحديث داخلي مع نفسه .

قال بقلق :

ـ هل ... هناك أطفال ؟

ضحك عطيه برقة جذابة ، جعلت أحمد يوقن أنه هو ذو السن الساحر . وأجاب عطيه :

ـ اطمئن . بعثوا بهم الى المستعمرات الخلفية .

وأضاف عطيه :

ـ وصدقني . لو بقوا هنا معهم ، لحملوا السلاح أيضا وقاتلوك. فهم محاصرون ، ويواجهون جميعا ، وأكثر منا ، موتا لا يهدأ .

قال أحمد ، وهو يتنهد براحة :

ـ هذا أفضل للاطفال .

وأضاف ساخطا :

ـ مجانين هؤلاء الاسرائيليون ، حين أتوا الى هنا ، من أقاصي الارض . عليهم اللعنة . أحسبهم كالفراش ، يظل يحوم ويحوم ، ثـــم يحرق نفسه في أول لهب ، بعد أن يكون قد أصيب بالدوار .

قال عطيه مبتسما :

ـ أنت لا تضيف جديدا .

وأضاف بعناية :

ـ اسمعني . حكامنا أكثر جنونا . أتعرف لماذا ؟ لانهم قبـــلوا الهدنة ، فتسلح الاسرائيليون جيدا هذه المرة ، وأقبلت اليهم مـــن موانىء الساحل أفواج جديدة من المهاجرين .

وتنهد عطيه ، وقال :

ـ من يدري ! قد تكون هناك هدنة ثانية . لقد تراجعت جيوشنا في بعض المواقع الشمالية الهامة . وهنا ، في الجنوب ، يحـــارب جنودنا النظاميون بسلاح فاسد ، لم يفكر أحد في استبداله خـــلال فترة الهدنة . آف ! صدقني ، لست متفائلا بنتائج هذه الجولة .

قال أحمد بقلق :

ـ والعمل ؟

قال عطيه مؤكدا :

ـ هه ! العمل ؟.. أن نواصل هذه الحرب ، بالاسلوب الذي نفعله الآن ، حتى لو أستمر ذلك عشرات السنين .

وأضاف عطيه بتصميم حزين :

ـ ينبغي أن تكون هناك جسور حية دائما ، الى المناطق المغتصبة. لا مفر من ذلك ، حتى تهب رياح مواتيـــة من أوطاننا ، تصنع النصر والحرية . لا مفر من ذلك ، أو نتفرق جميعا في الصحراء . نصبح لاجئين يعانون مرارة التيه .

وانطفأت الانوار في المستعمرة ، وبدت أنوار الفجر الكاذب تغمر الافق . وعاد أحمد زاحفا الى مكانه من حقل الشعير . وفكر أحمـد في كلمات عطيه بغضب . وآثر أن يركز ذهنه في خريطة المستعمرة ، التي شرحها قائد السرية . وفكر في دوره الرئيسي ، في القبـــو الغربي ، سيشترك مع الرفاق في الهجوم عليه ، بالقنابل اليدوية، وطلقات بندقيته ، والسونكي . سيصعد سلما ، ويجتـــاز دهليزا ، ويهبط سلما آخر الى القبو . سيكون الآخرون قد مهدوا له الطريق.

وارتفع صوت قائد السرية ، مقلدا صوت حيوان ما ، في تلـك الناحية . ورأى أحمد يده تشير اليهم ، في الظلمة الشاحبـــة ، أن يتقدموا . وزحف الرجال ، حتى قاربوا حافة حقل الشعـــير ، فتوقفوا . بينما واصـــــل التقدم فدائيان ، يحملان في أيديهمـا قصافتين . وإذ عبر الفدائيان حافة حقل الشعير ، هبت نسمة بحرية من الغرب ، وحملت رائحة عرقهما آدمية ، الى ما وراء الاسلاك . وانفجر في الاذان نباح كلب ساهر ، كان يجثم مدلي الاذنين، وفتحهما، وحدق في حقل الشعير ، ثم هب ينبح بشدة . وتبعته كلاب أخرى . وتوقف الفدائيان لحظة ، انفتحت فيهما أضواء الكشافات ، وانصبت فوق الهضبة ، وراحت تجوب المكان ، منحدرة الى رقعة التين الشوكي. وانسحب الفدائيان زاحفين بسرعة للخلف ، وغاصا بين أعواد الشعير، وكانت الكشافات تزداد ميلا الى أسفل ، عابرة بضوئها حقل الشعير، الى مساحات الرمال ، والاسلاك الشائكة . ثم ... انطفأت الكشافات فجأة ، لكن الكلاب ظلت تواصل النباح باصرار . وانطلقت أنـــوار الكشافات في لحظة واحدة ، الى رقعة التين الشوكي ، وحقـــــل الشعير ، وراحت تتقاطع يمنة ويسرة ، بينما قفزت الكلاب المدربـة عابرة الاسلاك ، فتحدد للعدو مكان الرجال . وصاح قائد السريـة :

ـ أضرب .

ولم يكن الرجال بحاجة الى ايضاح . انطلق من بنادقهم سيل من الرصاص ، وراح يحصد الكلاب ، ويطفىء الكشافات ، في وقت واحد . وحين أفلت أحد الكلاب الماكرة من الرصاص ، واقتـــرب من أحمد ، في حقل الشعير ، ارتعد جسده لحظة ، ودفع البندقية تجاه الكلب ، وانغرس السونكي داخل حلقه ، وأطلق رصاصة نسفت جمجمته ، وسقط الكلب يحتضر . وساد ظلام حالك في أعيـــن الرجال ، وصمت أخرس لا تقطعه الانفاس ، وصرير الجرذان . وسمع الرجال صوت قائد السرية يهمس :

ـ انتشروا أكثر على الجانبين .

وتباعد الرجال زاحفين في حقل الشعير . واكتشف أحمـد وعطيه أنهما ما يزالان جارين ، في نـــدى الفجر الزاحف . واقتـــرب أحمد من جاره . قال هامسا بالحاح :

ـ انهم ينتظرون طلوع النهار . وآنئذ يحصدوننا حيث نحن . لماذا لا نتقدم الآن ؟

ومن برج المراقبة والمزاغل ، انطلقت الـــرشاشات والبنادق ، وغمر الرصاص الاعمى حقل الشعير . وعاد أحمد يبتعد زاحفا عـن جاره . وبين لحظة وأخرى ، كانت قنابل الهاون تنطلق من المستعمرة. كانت تئز وهي تنحدر من فوق السطوح ، الى حقل الشعير ، فـــي شبه قوس . وحدثت اصابات لم تعرف بعد . كان الآخرون يعرفونها من آهة مكتومة ، تسمع بين حين وآخر . لم يطلق الرجال بعد رصاصة واحدة ، نحو أي هدف في المستعمرة . كانوا ينتظرون تعليمات القائد. ثم كف العدو عن اطلاق الرصاص والقنابل . وتصاعدت من حـــول الرجال روائح البارود ، وآثار احتراق أشياء خضراء . وبدا للرجال ان العدو قد آثر انتظار نور الفجر ، الذي راح يزحف صاعدا مـن

وراء الافق ، وربما كان ينتظر أيضا نجدة مدرعة من المستعمرات الاخرى في الخلف . واقترب أحمد من عطيه زاحفا . قال بقلق :

ـ هل أنت بخير ؟

ـ نعم .

قال أحمد :

ـ ها هو نور الفجر يأتي ، وسوف نصبح هدفا واضحا ، اذا لم ننسحب الآن .

قال عطيه معاتبا :

ـ لماذا جئنا اذن ، وأصبنا بالجراح ؟

وابتعد أحمد ، وهو يبتسم في سره بخجل .

ومثل غبش الغروب ، بدت التباشير الاولى للصباح ، وراحت تتضح ببطء شديد ، فوهات البنادق في المزاغل ، والرشاشات في برج المراقبة ، ومدافع الهاون في سطوح المستعمرة ، وراء الاسوار الحجرية السميكة . وأصدر قائد السرية أمرا . رفع يده قائلا :

ـ القصافة .

وتقدم على الاثر رجلان . راحا يزحفان ثانية الى مساحة الرمال . وواصلا زحفهما تجاه الاسلاك مسرعين ، حتى اذا أصبحا في منتصف المسافة ، انهمر فوقهما الرصاص ، وتدحرجت من أيديهما القصافتان . وانتشر الرصاص فوق الرجال في حقل الشعير ، ثم توقف . ونزع عطيه السونكي من بندقيته ، ووضع فوق طرفه خوذته الحديدية ، ورفعها فوق حقل الشعير . بدت للعدو رأسا يستعد صاحبه لاطلاق الرصاص ، وفتحت المزاغل نيرانها على الخوذة ، فراحت تتأرجح برنين جرس متتابع الدقات بغير انتظام . وخفض عطيه خوذته لحظة وهو يضحك ، ثم رفعها ثانية ، وراح يكرر ذلك . حتى أدرك العدو خدعة الخوذة ، فكف عن أطلاق النار . ونهض عطيه على مرفقيه ، وأطلق سيلا من الرصاص على برج المراقبة . فسكتت رشاشات العدو في البرج . وعاد يرقد في مكانه يفكر في حيلة أخرى .

وغلا الدم في عروق أحمد ، فنهض فجأة واقفا ، وهو يطلق الرصاص من مدفعه الرشاش ، على امتداد المزاغل ، بينما كان رصاص العدو ينهال عليه من أعلى المستعمرة ، ويمرق فوقه ، وبجانبه . ووعى أحمد ما يفعله في لحظة خاطفة ، فرقد في مكانه ثانية بسرعة خاطفة . وصمت رصاص العدو ، الذي كان ينتظر نجدة ، ومزيدا من ضوء الصباح ، يكشف كل هدف على انفراد . واقترب أحمد من عطيه . وبلهجة فخورة بما فعل ، لهجة لم تعبر عن نفسها ، قال أحمد :

ـ لو كنا مكان العدو ، لخرجنا من المستعمرة ، وحاصرنا حقل الشعير .

قال عطيه :

ـ انهم لا يفعلون ذلك أبدا . لكن لا تستهتر بهم . انهم محاصرون ، ويستخدمون عقولهم جيدا .

وأضاف عطيه مؤنبا :

ـ انهم لا يفعلون ، مثلا ، هذه المغامرة الجنونية ، التي فعلتها الآن .

كان قائد السرية يزحف نحوهما . قال لعطيه :

ـ انه مقاتل شجاع . سيعيش طويلا لانه يطلب الموت .

قال أحمد :

ـ أشكرك . لكن فلنسرع بالتصرف الآن ، أن نتقدم أو ننسحب .

قال القائد :

ـ أسكت . في مثل هذه العملية الفدائية ، لا يحدث انسحاب ما .

وقال عطيه للقائد :

ـ أريد أن أتحدث معك على انفراد .

وزحف الاثنان مبتعدين . وراحا يتحدثان . وفكر أحمد ان ثمة خطة جديدة ، يقترحها عطيه على القائد ، بعد أن أفسدت الكلاب خطة اقتحام الاسلاك . وابتعد القائد . وعاد عطيه الى مكانه ، قريبا من أحمد . قال عطيه :

ـ اذهب الى مكانك يا رفيقي ، وأرنا شجاعتك في مواجهة العدو .

وابتسم أحمد لنفسه ، ولم يقل شيئا . أحس أن الدم يملأ وجهه تحت العرق والندى ، بالتحدي . وابتعد زاحفا . وبعد لحظات ، كان معظم الرجال ينسحبون للخلف ، ويربضون وراء شجيرات التين الشوكي . لاحظ أحمد ذلك بدهشة . وفكر ان القائد يتصرف بنفسه بسرعة ، بين الرجال . عريشي هو ، فارع كلوح من الخشب الضامر . يداه معقودتان على صدره حين يقف ليتحدث . لم يره أحد يتكلم الا عند الضرورة . وزحف عطيه بلا سلاح ، حتى اذا بلغ حافة الشعير ، نهض واقفا ، وعدا محني الظهر ، الى سور الاسلاك ، واذ بلغها ، انثنى واقفا ، واطبق كفيه على قائم خشبي بين الاسلاك . وكان حزام ظهره منفرجا قليلا من الخلف . وراح رصاص العدو يحاول أن يصيب منه مقتلا . وكان الرجال يفتحون نيرانهم على العدو من بين أشجار التين ، ويغطون كل المزاغل ، ويمنعون أية بندقية أو يد تحمل قنبلة يدوية ، من أن تطل من وراء أسوار السطوح الحجرية ، وأيضا من برج المراقبة الذي كان العدو يحاول منه توجيه رشاشاته مرة أخرى . وكان الباقون يعدون في حماية النيران الخلفية ، راكعين تقريبا ، ويضعون قدما في حزام عطيه ، ويرفعون أنفسهم ببراعة ، ويضعون القدم الاخرى على كتفه ، ثم يقفزون برشاقة وراء الاسلاك ، منطلقين الى أهدافهم . وسقط بعضهم جريحا برصاص العدو ، أمام عيني عطيه ، لكنه كان يواصل زحفه أسفل المزاغل ، وراح يتحامل على نفسه ويقذف بالقنابل في داخلها ، أو يرسلها وراء الاسلاك العالية ليسكت البنادق ، ومدافع الهاون . وراح الآخرون يسرعون ، قادمين من بين أشجار التين ، ويعبرون واحدا بعد آخر هذا الجسر الحي ، الذي صنعه عطيه بظهره ، الذي راحت ينتشر في ثيابه الدماء . وكان جسده يهتز وينضغط تحت ثقل الرجل ، ثم يتمدد للحظة قصيرة ، لا يلبث بعدها أن يتداخل ، حين يضع الرجال أقدامهم على كتفه ، ويقفزون برشاقة ، ويعدون عبر الافنية والاقبية والطرقات في قلب المستعمرة .

وراحت دماء عطيه تنزف بغزارة ، من صدره ويديه وساقيه ، وعرق غزير تنضحه الآلام الحبيسة ، يطبق عينيه . وكانت كفاه قد ماتتا على القائم الخشبي ، وساقاه قد تصلبتا ، ولم تتركا لجسده فرصة للسقوط . وأحس عطيه بأن الرجال ما يزالون يعبرون من فوقه . واكتشف ان ذلك الاحساس ، انما هو بفعل آلام جراحه ، فحين فتح عينيه ليرى الدنيا ، وحدق في جدار المستعمرة ، لم يجد أحدا من الرجال ، حتى من كانوا منذ قليل جرحى أمام عينيه . وأغمض عينيه ، وراحت أذناه تنصتان لاصوات الدنيا . هدير هائل مروع ، تصنعه صيحات الرجال ، والانفجارات ، وطلقات الرصاص ، وصرخات العدو الذي تخترق السونكيات صدوره بوحشية . وود عطيه أن يصرخ متألما ، أو يترك جسده يسقط ليستريح ، لكنه لم يستطع ذلك ، كان أسير قرار عصبي اتخذه ، عندما كان في حقل الشعير مع القائد . وحتى عندما ومض في مؤخرة رأسه ذلك الضوء الاصفر ، ناسفا كل المراكز العصبية في مخه ، وتلاشى اثره كل شعور بالعالم والحياة ، ظل عطيه جسرا قائما ، شهده من عادوا من المستعمرة ليعيشوا نصرا ما على العدو . وكانوا تسعة عشر رجلا ، كان من بينهم أحمد .

القاهرة

سليمان فياض